أوضاع الإمبراطورية الرومانية زمن الأباطرة الصالحين "96- 180م"

محمد عبد القادر بن صلاح[1]
كلية الآداب، جامعة مصراتة، قسم التاريخ، دولة ليبيا
m.bensalah@art.misuratau.edu.ly

استلمت الورقة بتاريخ 2024/01/10،وقبلت بتاريخ 2025/02/1 ونشرت بتاريخ 2025/02/12

الكلمات المفتاحية:
الإمبراطورية الرومانية، الأباطرة الصالحين، أوضاع الإمبراطورية

الملخص

تناول البحث أوضاع الإمبراطورية الرومانية خلال فترة حكم الأباطرة الصالحين (96-180م)، والتي شهدت تحولات كبيرة على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تميزت هذه الفترة باختيار الأباطرة بناءً على الكفاءة وليس الانتماء العائلي، مما أدى إلى حكم مستقر وفعال، اعتمد فيه الأباطرة على نظام التبني لضمان انتقال السلطة بشكل سلس، وصلت الإمبراطورية إلى أقصى اتساع لها في عهد تراجان، حيث ضمت مناطق مثل داكيا وبلاد الرافدين، وقد اهتم الأباطرة بتأمين الحدود من خلال بناء الحصون والجدران الدفاعية، ومع ذلك، واجهت الإمبراطورية تحديات عسكرية كبيرة. وشهدت نموًا كبيرًا بسبب تحسين البنية التحتية، مثل بناء الطرق والموانئ، مما سهل التجارة الداخلية والخارجية، وتم تعزيز الزراعة من خلال منح القروض للفلاحين وتشجيع زراعة الحبوب، إلا أن الأوبئة مثل الطاعون أدت إلى تدهور الاقتصاد والسكان. وتم تعزيز حقوق المواطنة الرومانية لسكان الولايات، مما ساهم في زيادة الاندماج الاجتماعي والسياسي، وتم إصدار قوانين لحماية الفئات الضعيفة، مثل العبيد والمدينين، وتحسين النظام القضائي عبر اللائحة الدائمة. وفي المجمل فإن الإمبراطورية الرومانية قد حققت في عهد الأباطرة الصالحين ازدهارًا كبيرًا في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكنها واجهت تحديات أضعفت استقرارها في نهاية هذه الفترة. تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية الرومانية خلال فترة حكم الأباطرة الصالحين، مع التركيز على إنجازاتهم الإدارية والعسكرية والثقافية، وتأثير سياساتهم على استقرار الإمبراطورية وازدهارها، وقد اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي الذي يعتمد على سرد الأحداث التاريخية وتحليلها كل ما أمكن ذلك. وقد توصلت الدراسة إلى أن الإمبراطورية الرومانية حققت في عهد الأباطرة الصالحين ازدهارًا كبيرًا في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكنها واجهت تحديات أضعفت استقرارها في نهاية هذه الفترة.

1. المقدمة

تُعد فترة حكم الأباطرة الصالحين (96-180 م) واحدة من أبرز الفترات في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، حيث شهدت تحولات جذرية على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. تميزت هذه الفترة باختيار الأباطرة بناءً على الكفاءة وليس الانتماء العائلي، مما أدى إلى حكم مستقر وفعال، وساهم في تحقيق ازدهار كبير للإمبراطورية. ومع ذلك، فإن هذه الفترة لم تخلُ من التحديات، مثل التهديدات الخارجية من القبائل الجرمانية والبارثيين، والأزمات الداخلية كالتمردات العسكرية وانتشار الأوبئة.

1.1 أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على العوامل التي أدت إلى ازدهار الإمبراطورية الرومانية خلال فترة حكم الأباطرة الصالحين، وفهم كيفية تعاملهم مع التحديات التي واجهتها، كما تساهم الدراسة في فهم تأثير السياسات الإدارية والعسكرية والاقتصادية التي اتبعها هؤلاء الأباطرة على استقرار الإمبراطورية وتماسكها.

2.1 أهداف الدراسة:

- تحليل الإصلاحات السياسية والإدارية التي قام بها الأباطرة الصالحون، ودورها في تعزيز استقرار الإمبراطورية.
- دراسة التوسع العسكري والجهود الدفاعية التي بذلت لتأمين حدود الإمبراطورية.
- تقييم الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية، ودورها في تحقيق الازدهار الداخلي.
- فهم التحديات التي واجهتها الإمبراطورية، مثل الأوبئة والتمردات العسكرية، وكيفية تعامل الأباطرة معها.

M.bensalah@art.misuratau.edu.ly

3.1 إشكالية الدراسة:

تتمحور إشكالية الدراسة حول التساؤل الرئيسي :كيف استطاع الأباطرة الصالحون تحقيق الاستقرار والازدهار للإمبراطورية الرومانية رغم التحديات الداخلية والخارجية التي واجهتها؟ ويتفرع من هذا التساؤل أسئلة فرعية، مثل:

- ما هي الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي ساهمت في تعزيز استقرار الإمبراطورية؟
- كيف تم التعامل مع التهديدات الخارجية من القبائل الجرمانية والبارثيين؟
- ما هو تأثير الأوبئة والتمردات العسكرية على استقرار الإمبراطورية؟
- من خلال الإجابة على هذه التساؤلات، تسعى الدراسة إلى تقديم فهم شامل لفترة حكم الأباطرة الصالحين، ودورها في تشكيل تاريخ الإمبراطورية الرومانية.

2. الإطار التاريخي:

بدأت فترة حكم الأباطرة المتميزين الذين أنهوا عهد السلالات الحاكمة، حيث تم اختيارهم وتدريبهم من خارج العائلات الحاكمة بناءً على كفاءتهم، وبفضل هؤلاء الأباطرة، وصلت الإمبراطورية إلى مرحلة كبيرة من التوسع والازدهار في المجالات السياسية والاجتماعية والحضارية، وذلك نتيجة لسيادة السلام في الخارج وفاعلية الإدارة الداخلية، وكان هؤلاء الأباطرة مواطنين ينتمون إلى الطبقة العليا من النخبة الحاكمة، وقد نشأوا وترعرعوا في الأقاليم، وتميزت هذه الطبقة بثقافتها الواسعة وتعليمها العالي وثروتها الكبيرة، واعتمد الأباطرة على هذه الفئة في إدارة شؤون الإمبراطورية باختيار الأكثر كفاءة وقدرة، وبطبيعة الحال، كانوا على دراية باحتياجات الأقاليم، فعاملوها كأجزاء أساسية من الإمبراطورية وليس كممتلكات تابعة لهم (رستوفتزف، 1957، ص 183) ، هم على التوالي كما يلي:

1.2 نيرفا (Nerva) (96 – 98 م)[1]:

بوفاة الإمبراطور دوميتيان في عام 96م، انتهى عصر السلالات الحاكمة، وبدأ عهد جديد تميز باختيار الأباطرة من خارج العائلات الحاكمة بناءً على الكفاءة، خلف دوميتيان الإمبراطور نيرفا، الذي أدخل نظام التبني، كان نيرفا يبلغ من العمر حوالي ستة وستين عامًا عند توليه الحكم، ولم يكن لديه أبناء، فقام بتبني تراجان (Trajan)[2] ، أحد قادة الجيش البارزين، ومنحه الصلاحيات الإمبراطورية تمهيدًا لمشاركته في الحكم، إلا أنه توفي عام 98م قبل أن يتمكن تراجان من تولي منصب الشريك رسميًا، ليتولى تراجان بعد ذلك منصب الإمبراطور بمفرده (الناصري، 1991، ص ص 234، 235).

2.2 تراجان (98 – 117 م):

يُعد تولي تراجان الحكم بداية عصر ازدهار للولايات في الإمبراطورية ونهاية سيطرة واحتكار أثرياء الرومان والإيطاليين على الوظائف العليا للإمبراطورية، كما أصبح عدد أعضاء مجلس السناتو من أبناء الولايات في زمنه يمثل أكثر من 40 % تقريباً من أعضاء المجلس، من ضمنهم عدد كبير من أبناء الولايات الشرقية (الناصري، 1991، ص 238)، كان الإمبراطور يتابع عن كثب أحوال الأقاليم ويتخذ القرارات اللازمة لإصلاح المناطق التي تعاني من التدهور، كما أولى اهتمامًا كبيرًا للمشاريع الاقتصادية، حيث عمل على تحسين البنية التحتية من خلال بناء الطرق والجسور والموانئ الجديدة في مختلف الأقاليم، مما ساهم في تنشيط التجارة وتسهيل حركة القوات العسكرية، وقام بتنظيم نظام البريد وأنشأ ساحة عامة في العاصمة تضم مرافق خدمية لخدمة المواطنين، وشجع الأثرياء في الأقاليم على استثمار أموالهم في تطوير مدنهم وتجميلها، مما أدى إلى انتشار حركة عمرانية واسعة في جميع أنحاء الإمبراطورية خلال فترة حكمه، وعمل على تحسين الإنتاج في الأراضي الإيطالية، وطلب من أعضاء المجلس الأعلى استثمار جزء من ثرواتهم في الأراضي الزراعية المحلية، كما قدم الدعم لصغار المزارعين من خلال منحهم قروضًا بفوائد مخفضة لمساعدتهم على تطوير أراضيهم (ديورانت، 1988، ص 445)، كما قام بتوسيع نظام الرعاية الاجتماعية، حيث عزز برامج التعليم والدعم الغذائي للفقراء في جميع أنحاء الإمبراطورية، وجعل هذه البرامج تحت إشراف مسؤولي الطرق، واتبع سياسة توسع عسكري، مخالفًا بذلك النهج الذي كان قد تبناه أغسطس من قبل، فأنشأ قوات عسكرية لحماية المستعمرات على حدود نوميديا (Numidia)، وأسس مستعمرة تموجادي (Thmugadi) عام 100م، والتي بدأت كموقع دفاعي ثم تحولت لاحقًا إلى مركز سكاني كبير (الناصري، 1991، ص 239).

(1) هو ماركوس كوكيوس نيرفا (Marcus Coceius Nerva) أحد أعضاء مجلس السناتو ومن أبرز فقهاء القانون في روما تم اختياره ليكون إمبراطوراً بعد مقتل الإمبراطور دوميتيان وكان على وفاق مع مجلس السناتو، بدأ حكمه بتوزيع الأراضي على المعدمين في روما ورعاية الفقراء في الولايات، ولم يكن على وفاق مع الحرس البرايتوري الذي أجبره عام 97 م على قتل المشاركين في مقتل الإمبراطور دوميتيان، الأمر الذي حمله على القيام بتبني أحد قادة الجيش ليُشركه في الحكم ويخلفه على الإمبراطورية. للمزيد يُنظر: (ديورانت، 1988، ص 441م).

(2) تراجان ولد في مدينة ايتاليكا (Italica) باسبانيا، دخل والده إلى عضوية مجلس السناتو في زمن فسباسيان وكلفه لتولي مناصب عدة منها قيادة قوات الجبهة الشرقية في سوريا وأصبح حاكم عليها، ارتقى تراجان في صفوف الجيش الروماني في زمن فسباسيان وإبنه الإمبراطور دوميتيان، تولى حكم ولاية ألمانيا الدنيا في زمن نيرفا، وكان تراجان أول إمبراطور يجلس على عرش الإمبراطورية من أصول غير رومانية. للمزيد يُنظر: (الناصري، 1991، ص ص 237- 247).

في عام 101 م، قاد حملة عسكرية لضم داكيا (Dacia) إلى الإمبراطورية، حيث أجبر ملكها ديكيبالوس (Decebalus) على الاستسلام، وبعد أن استعادت داكيا قوتها، تحالفت مع البارثيين (Parthian) ونقضت اتفاقها مع الرومان، ما دفع الإمبراطور إلى قيادة حملة عسكرية أخرى عام 106م، تمكن خلالها من السيطرة على المنطقة وقتل ملكها، لتصبح داكيا ولاية رومانية، قام بتعمير المنطقة بالمستوطنين الرومان لتعزيز السيطرة عليها (ديورانت، 1988، ص 444).

كما قام بضم مملكة الأنباط (Nabatean)الواقعة في الجنوب الشرقي من سوريا عام 106 م، وألحقها بولاية بلاد العرب الرومانية (Provincia Arabia) وفي عام 115 م، شن هجومًا على البارثيين، حيث تمكن من ضم مناطق الخليج العربي وبلاد الرافدين إلى الإمبراطورية، وحولهما إلى ولايتين رومانيتين: ولاية بلاد ما بين النهرين (Provincia Mesopotamia) وولاية أشور (Provincia Assyria) (الناصري، 1991، ص 245)

ولكي يتمكن من الإشراف الفعّال على الأقاليم ودعم حملاته العسكرية، قام بإنشاء مدن جديدة مثل تراجانوبوليس (Trajanopolis) وبلوتينوبوليس(Plotinopolis) وتراجانا أوغسطا (Trajana Augusta) ونيكوبوليس (Nicopolis) ، لتصبح مراكز حضارية أكثر تطورًا وتنظيمًا، بالإضافة إلى ذلك، منح حقوق البلدية لمدن قائمة ومزدهرة، وخصّص حقوق المستعمرات لمدن أخرى، كما أدخل نظام المؤسسات البلدية على بعض القرى، ومنحها الحقوق اللاتينية (رستوفتزف، 1957، ص 335)، وفي عام 115 م، اندلعت ثورة اليهود في قورينا(Cyrene)، وامتدت لتشمل مناطق قبرص ومصر وفلسطين وبلاد الرافدين، وتم تكليف الجنرال لوسيوس كويتوس (Lusius Quitus) بقمع الثورة في فلسطين، حيث ارتكب عمليات قمع عنيفة ضد اليهود وأخمد التمرد، وبفضل ذلك، توقفت الثورات في معظم الأقاليم، باستثناء مصر، توفي الإمبراطور عام 117 م، وخلفه الإمبراطور هادريان، الذي كان قد تبناه قبل وفاته أثناء فترة مرض (الناصري، 1991، ص 245).

3.2 هادريان (Hadrian) (117 – 138)[3]:

كان هادريان يتمتع باحترام كبير من قبل الجيش والشعب الروماني وفي الولايات أيضاً، فقد اهتم بتحسين أحوال الإمبراطورية داخليًا وخارجيًا، وكان يقضي وقتًا طويلًا مع الجنود، ويرتدي زيهم العسكري ويتفقد أحوالهم بشكل مباشر، هذا السلوك أكسبه ولاءً كبيرًا من الجيش، حيث رأى الجنود فيه قائدًا يعيش بينهم ويهتم برفاهيتهم، تمتع بشعبية كبيرة بسبب إصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية، فقد ألغى الديون المتراكمة من الضرائب على المواطنين، مما خفف العبء عن الفقراء، وضاعف الهبات المالية التي تُمنح للفقراء في المناسبات العامة، واهتم بتحسين الرعاية الطبية والتعليمية للطبقات الفقيرة. أما فيما يخص السياسة الخارجية، فقد أدرك أن الخزانة الرومانية لم تكن قادرة على تحمل تكاليف سياسة التوسع العسكري التي اتبعها سلفه الإمبراطور تراجان، كما أدرك صعوبة تأمين الحدود الجديدة للإمبراطورية، لذلك قرر إيقاف التوسع العسكري وأمر بانسحاب القوات الرومانية من ولايتي أشور وبلاد الرافدين (العراق حاليًا)، وعقد معاهدة سلام مع البارثيين (الإمبراطورية الفارسية) (الناصري، 1991، ص 245). كان الإمبراطور هادريان معروفًا باهتمامه الكبير بجميع ولايات الإمبراطورية الرومانية، حيث قضى أغلب فترة حكمه في التجوال بينها لزيارتها والاطلاع على أحوالها بشكل مباشر. بدأ رحلته الطويلة عام 120م، عندما غادر روما متجهًا إلى بلاد الغال (فرنسا حاليًا) ومنها إلى منطقة وادي الراين، ثم واصل مسيرته إلى بريطانيا، حيث أمر ببناء السور العازل المعروف باسم "سور هادريان"، الذي كان يهدف إلى فصل القبائل البربرية في الشمال عن الأراضي الرومانية في الجنوب، امتد هذا السور من خليج سلواي (Firth of Solway) في الغرب إلى مصب نهر التاين (Tyne) في الشرق، ليشكل خط دفاع استراتيجيًا للإمبراطورية، بعد ذلك، توجه إلى إسبانيا مرورًا ببلاد الغال مرة أخرى، وفي عام 123م قاد حملة تأديبية ضد القبائل التي كانت تهاجم الولايات الرومانية في شمال غرب أفريقيا، بهدف تعزيز الأمن وحماية الحدود الرومانية في تلك المنطقة، من خلال هذه الرحلات والإجراءات، أظهر هادريان التزامًا قويًا بتحسين أحوال الولايات الرومانية وتأمين حدود الإمبراطورية، مما عزز استقرارها وساهم في تعزيز ولاء الشعوب الخاضعة للحكم الروماني (ديورانت، 1988، ص 452)، ثم زار هادريان مدن آسيا الصغرى، ومن هناك عاد إلى روما لفترة قصيرة، قبل أن يغادرها مرة أخرى عام 128م متجهًا إلى شمال أفريقيا، بعد ذلك، توجه إلى أثينا، حيث أكمل بناء معبد زيوس الأولمبي، والذي كان أحد أضخم المشاريع المعمارية في ذلك الوقت، كما أسس مدينة جديدة في ضواحي أثينا أطلق عليها اسم هادريانوبوليس (Hadrianopolis) تكريمًا لاسمه، واصل هادريان رحلته بزيارة مدن مهمة مثل أفسوس (Ephesus) : في آسيا الصغرى، وبيثينيا(Bithynia)، وأنطاكيا، وبالميرا، وسوريا، ومن هناك، توجه إلى فلسطين، حيث دخل مدينة أورشليم (بيت المقدس) فوجدها لا تزال تعاني من الدمار الذي خلفه الإمبراطور تيتوس بعد تدميرها عام 70م، حيث تأثر بهذا المشهد، فقرر إعادة بناء المدينة على أنقاضها وأسماها إيليا كابيتولينا Aelia) (Capitolinaكما شيد فيها معبدًا جديدًا مخصصًا للإله جوبيتر كابيتولينوس(Jupiter Capitolinus) ، في محاولة

(3) هادريان: ولد في مدينة يتاليكاالاسبانية عام 76 م مات والده عام 86 م فكفله تراجان واهتم بتعليمه، تقلد العديد من المناصب أهمها نقيب الفرقة الكويستورية، ونقيب العامة، والقنصلية، وخاض مع تراجان حروب بارثيا وداكيا، وكان آخر منصب تولاه قبل الارتقاء إلى عرش الإمبراطورية هو حاكم سوريا وقائد القوات فيها. للمزيد يُنظر: (الناصري، 1991، ص 248)

لإضفاء طابع روماني على المدينة، ثم توجه إلى مصر عام 130م، حيث ركب النيل متجهًا إلى مدينة طيبة، وبنى مدينة جديدة أسماها أنطينوبوليس (Antino polis) تخليدًا لذكرى غلامه الحبيب أنطينوس (Antinous) [4]، الذي مات غرقًا في النيل في ظروف غامضة، كانت هذه المدينة تعبيرًا عن حزن هادريان العميق على فقدان أنطينوس، الذي كان له مكانة خاصة في حياة الإمبراطور، من خلال هذه الرحلات الواسعة، أظهر هادريان اهتمامًا كبيرًا بتحسين وتطوير الولايات الرومانية، بالإضافة إلى إحياء الذاكرة الرومانية في المناطق التي زارها، مما جعله أحد أكثر الأباطرة نشاطًا وتأثيرًا في تاريخ الإمبراطورية الرومانية (الناصري، 1991، ص 254). عاد هادريان إلى روما عام 131م، لكن فترة استقراره لم تدم طويلاً، إذ اندلعت ثورة اليهود في أورشليم عام 132م، فكلف هادريان الجنرال يوليوس سيفيروس (Julius Severus)بقمع هذه الثورة، وهو ما نجح فيه هذا الجنرال بعد حرب دامت عامين، وانتهت عام 135م، خلال هذه الحرب، دُمرت أورشليم مرة أخرى، وشُرد اليهود منها بشكل نهائي، مما وضع حدًا لوجودهم السياسي في المدينة لفترة طويلة. كان هادريان يُعرف بحبه للعمارة والتطوير الحضري، حيث أنشأ العديد من المدن وشيد المباني الفخمة في كل مكان زاره، وكثيرًا من هذه المدن كانت تحمل اسمه أو مشتقات منه، (رستوفتزف، 1957، ص 196)، مثل: هادريانوبوليس (Hadrianopolis)[5] الواقعة بين مدينتي يوسبريدس (Euesperides)[6] ومدينة توخيرة[7](Tchera) في ليبيا (بو جنات، 2011، ص194)، ومدينة هادريانوبوليس الواقعة في تركيا الحالية، ومدينة هادريانوثيرا (Hadrianuthera) في آسيا الصغرى، ومستعمرة جوليا هادريانا أفينيو (Colonia Julia Hadriana Avenio) جنوب فرنسا (سيد الناصري، 1991، ص 261)، وقد استطاع أن يحوّل العديد من القرى الصغيرة التي نشأت بالقرب من معسكرات الجيوش الرومانية، والتي كان يقطنها في الغالب قدامى الجنود المسرحين، إلى مدن كبيرة ومزدهرة، كما عمل على تعزيز الاندماج الثقافي والسياسي للشعوب القريبة من الثقافة الرومانية، حيث منح حقوق المواطنة الرومانية لسكان بعض المدن التي رفعها إلى مرتبة المستعمرة الرومانية، وهي أعلى درجة يمكن أن تصل إليها مدينة في الإمبراطورية، أما في المناطق التي لم تصل إلى مرتبة المستعمرة، فقد منح الحقوق اللاتينية لأعضاء مجالس البلديات وكبار الموظفين المحليين، مما سمح لهم بالتمتع ببعض الامتيازات القانونية والاجتماعية التي كانت تُمنح عادة للمواطنين الرومان، هذه الخطوات ساعدت على تعزيز الولاء للإمبراطورية وتقوية الروابط بين روما والولايات التابعة لها، مما ساهم في تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي في أرجاء الإمبراطورية الواسعة (حافظ، 2011م، ص 75)، أما في مجال الإصلاحات التشريعية، فقد قام بإصلاحات مهمة أسهمت في تعزيز النظام القضائي الروماني، ومن أبرز هذه الإصلاحات، وضع لوائح ثابتة لرجال القضاء البرايتوري للعمل بها، والتي عُرفت باسم اللائحة الدائمة (Edictum Perpetuum) هذه اللائحة كانت بمثابة مرجعية قانونية موحدة تهدف إلى تقليل الاجتهادات الشخصية للقضاة وضمان تطبيق القانون بشكل عادل ومنتظم في جميع أنحاء الإمبراطورية، كما منح المواطنين الحق في إقامة دعوى قضائية ضد قانون معين أو مقاضاة الدولة في حال اعتبروا أن هناك تجاوزًا أو ظلمًا، هذه الخطوة عززت من حقوق المواطنين ووسعت نطاق العدالة، مما سمح للأفراد بالدفاع عن حقوقهم أمام السلطات بشكل قانوني ومنظم (الناصري، 1991، ص265)، كانت قراراته مصدرًا مهمًا للقوانين في الإمبراطورية الرومانية، حيث كانت تصدر على شكل مراسيم إمبراطورية بموجب حقه في الإمبريوم (السلطة العليا)، وقد تميزت هذه المراسيم بتركيزها على تعزيز العدالة وحماية الفئات الضعيفة في المجتمع، ومن بين إصلاحاته الاجتماعية البارزة، أن حرّم قتل العبيد أو تعذيبهم من قبل سادتهم، كما منع بيعهم ليكونوا مصارعين في حلبات القتال، وألغى حق أرباب الأسر (الآباء) في تقرير مصير أبنائهم، مثل منحهم الحياة أو رفضها، وهو حق كان يُعرف باسم السلطة الأبوية (Patria Potestas) (حافظ، 2011م ص 76)، كما قام بإلغاء الفروق بين القوات العسكرية النظامية والقوات المساعدة، حيث لم تعد الخدمة في الفرق العسكرية النظامية حكرًا على المواطنين الرومان فقط، كما لم تعد القوات المساعدة مقتصرة على سكان الولايات الذين لم يحصلوا على حقوق المواطنة الرومانية، هذه الخطوة ساعدت على تعزيز الاندماج بين مختلف فئات المجتمع داخل الجيش الروماني، مما أدى إلى زيادة تماسك القوات العسكرية وتوسيع قاعدتها البشرية، وكان يسعى إلى تقليص المكانة المتميزة لإيطاليا واعتبارها مثل أي ولاية أخرى في الإمبراطورية، إلا أنه توفي عام 138م قبل أن يتمكن من تنفيذ هذا، وتولى السلطة من بعده الإمبراطور أنطونينوس بيوس، الذي واصل بعض سياسات هادريان، لكنه حافظ على المكانة الخاصة لإيطاليا في الإمبراطورية الرومانية (الناصري، 1991، ص 272).

(4) انطينوس: هو إغريقي الأصل من مدينة بيثينيا اتخذه هادريان غلاماً له، مات غرقاً عندما ركب مع هادريان في رحلته عبر النيل وهو في عمر الثامنة عشر، وحزن عليه هادريان كثيراً، وأمر بأن يقام له ضريح على شاطئ النهر، دفن فيه الغلام، وأنشأ حول ضريحه مدينة انتينوبوليس. (ديورانت،1988، ص 454.

(5) هي مدينة دريانة الحالية.

(6) يوسبريدس أو هيسبيريديس: مدينة إغريقية أنشئت على الساحل الشرقي من ليبيا في الفترة من 525 ق.م إلى 519 ق.م وهي مدينة بنغازي الحالية. (البرغوثي، 1971م، ص 182).

(7) توخيرة هي مدينة إغريقية أنشأها الإغريق عام 620 ق.م في شرق ليبيا وهي مدينة توكرة الحالية. (بو جنات، 2011، ص 194)

4.2 أنتونينوس بيوس (Antoninus Pius) (138-161م)[8]:

سار الإمبراطور أنطونينوس بيوس على نهج سلفه هادريان، فلم يشن أي حروب جديدة خلال فترة حكمه، واقتصر على تعزيز أمن حدود الإمبراطورية من خلال بناء الحصون والقلاع المحصنة، بدلاً من إنفاق الموارد على الصراعات العسكرية، وجه أنطونينوس اهتمامه نحو المشاريع المدنية والتنموية، حيث خصص الأموال للبناء والتعمير، فشيد الحمامات العامة والمسارح والمكتبات والملاعب في العديد من مدن إيطاليا، كما أولى اهتمامًا كبيرًا بتطوير البنية التحتية، خاصة الموانئ، مما سهل حركة التجارة والتنقل بين أجزاء الإمبراطورية، وأنفق بكرم على الرعاية الاجتماعية والصحية والتعليمية، مما ساهم في تحسين مستوى معيشة المواطنين، بفضل سياساته السلمية وتركيزه على التنمية الداخلية، عمَّ الرخاء والاستقرار أرجاء الإمبراطورية الرومانية خلال فترة حكمه، حيث لم ترهق الحروب موارد الولايات، مما سمح بتحقيق ازدهار غير مسبوق (الناصري، 1991، ص 272)، وألغى تحصيل الضرائب من المدن التي تعرضت للكوارث الطبيعية، مثل الزلازل، وقدم منحًا مالية لدعم إعمارها، كما تميز بتسامحه مع أصحاب الأديان غير الرومانية، حيث خفف من الإجراءات الصارمة التي فرضها سلفه هادريان ضد اليهود، وتعامل بتساهل أكبر مع المسيحيين، وألغى المتأخرات الضريبية عن المواطنين، وساهم في تخفيف الأعباء المالية عنهم، وأنفق أنطونينوس بكرم على تنظيم الألعاب العامة والحفلات، كما قام بشراء كميات كبيرة من الزيت والقمح ووزعها مجانًا على السكان لضمان رفاهيتهم، واهتم أيضًا بشرح القانون وتشريعاته للعامة، وشدد العقوبات على مرتكبي الجرائم، حيث جعل عقوبة الزنا متساوية بين الرجال والنساء، كما عاقب السادة الذين يعذبون عبيدهم أو يقتلونهم، وفرض قيودًا صارمة على تعذيب العبيد خلال المحاكمات، ومن بين إصلاحاته القضائية، أن فرض على القضاة التعامل مع المتهمين على أنهم أبرياء حتى تثبت إدانتهم (Weigel, 1998, p63). فضل الإمبراطور أنطونينوس بيوس البقاء في روما وعدم التجول بين الولايات، مع التركيز على الحفاظ على سلامة الإمبراطورية دون الدخول في حروب توسعية، والتزم بالحدود التي رسمها سلفه هادريان، وكان يردد مقولته الشهيرة: "إنه يفضل إنقاذ حياة مواطن واحد على قتل ألف عدو"، مما يعكس فلسفته السلمية وحرصه على رفاهية شعبه، ومع ذلك، اضطر أنطونينوس إلى خوض بعض الحروب لمواجهة الثورات التي اندلعت في مناطق مثل: داكيا ومصر وبريطانيا، حيث كلف جنرالات الجيش بإخماد هذه الاضطرابات، كما أمر ببناء جدار دفاعي شمال الجدار الذي أقامه هادريان في بريطانيا، ليكون خط دفاع متقدمًا، وشيد الحصون والقلاع على طول حدود الإمبراطورية لتأمينها، بفضل سياساته السلمية وتركيزه على التنمية الداخلية، عمَّ الرخاء والسلام أرجاء الإمبراطورية خلال عهده، وبلغ هذا الاستقرار لدرجة أن بعض المدن التي لم تكن تخضع للحكم الروماني أرسلت مندوبيها إليه، طالبة الانضمام إلى الإمبراطورية للتمتع بمزايا المواطنة الرومانية، إلا أنه رفض هذه الطلبات، مفضلاً الحفاظ على حدود الإمبراطورية كما هي دون توسع إضافي، وكانت فترة حكمه مثالاً على الإدارة الحكيمة والتركيز على الرفاهية الداخلية، مما جعلها واحدة من أكثر الفترات استقرارًا في تاريخ روما (Weigel, 1998, pp 63,106)، ونظرًا لحرصه على توفير الأموال وتوجيهها نحو المشاريع المدنية والتنموية، أهمل الإنفاق على الجيش بشكل كافٍ، وقد أدى هذا الإهمال إلى تراخي القوات الرومانية وضعف استعدادها العسكري، مما أثر سلبًا على أمن الحدود، وبعد وفاته عام 161م، بدأت الأوضاع في بعض المناطق الحدودية للإمبراطورية بالاضطراب، حيث لم تكن القوات قادرة على مواجهة التحديات الأمنية بشكل فعال، تولى الحكم من بعده ابنه بالتبني ماركوس أوريليوس، الذي وجد نفسه مضطرًا لمواجهة هذه التحديات العسكرية والحد من الاضطرابات التي تفاقمت بسبب سياسات سلفه المفرطة في التوفير، وهكذا، كانت فترة حكم الإمبراطور أنطونينوس بيوس، على الرغم من تحقيقها الرخاء الداخلي، قد تركت إرثًا من التحديات الأمنية التي واجهها خليفته (الناصري، 1991، ص 276).

5.2 ماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) (161 – 180 م)[9]:

في عام 161م، أصبح ماركوس أوريليوس إمبراطورًا، وقام بمشاركة الحكم مع أخيه بالتبني لوكيوس فيروس (Lucius Verus)، وزوَّجه من ابنته لوكيلا (Lucilla) ، بدأ ماركوس أوريليوس حكمه بتوجيه الأموال نحو الهبات والعطايا للشعب، وأعفى سكان روما والولايات من بعض الضرائب المتأخرة، مما خفف العبء المالي عنهم، كما أجرى إصلاحات مهمة في النظام القانوني، حيث جلس شخصيًا في مجلس القضاء في بعض الأحيان للإشراف على سير العدالة، وزاد من عدد أيام جلسات المحاكم وقصر آجالها لتسريع الفصل في القضايا، بالإضافة إلى سنَّ قوانين جديدة لحماية الفئات الضعيفة، مثل عديمي الأهلية من ظلم الأوصياء، والمدينين من تعسف الدائنين، وأنشأ صندوقًا خاصًا لتمويل دفن موتى

(8) ولد أنتونينوس في لانوفيوم وهو من أسرة أرستقراطية تملك العديد من الضياع في إيطاليا، تقلد العديد من الوظائف العليا، أهمها القنصلية، وترأس أحد الألوية القضائية الأربعة التي قسمت إليها إيطاليا في زمن هادريان، ثم ولاه على ولاية آسيا الصغرى بدرجة بروقنصل. (الناصري، 1991، ص 271).

(9) ولد ماركوس أوريليوس في روما عام 121 م من عائلة ثرية وفدت من اسبانيا، مات والده بعد ثلاثة أشهر من مولده فعاش عند جده الذي كان قنصلاً في ذلك الوقت، وكان هادريان قد أعجب به عندما رآه أثناء تردده على بيت جده، فأجبر أنتونينوس بيوس على تبنيه ليكون خليفته من بعده (ديورانت، 1988، ص 460).

الفقراء، من ناحية أخرى، فرض قيودًا على الولايات للحد من الإنفاق المفرط على الألعاب العامة، وأكد على عدم استخدام المصارعين لأسلحة حقيقية أو مسننة في هذه الألعاب، كما حرَّم القتل فيها، (ديورانت، 1988، ص 463).

حرص ماركوس أوريليوس على الاهتمام برعايا الإمبراطورية في الولايات، حيث منح العديد من المدن مكانة مرموقة من خلال ترقيتها إلى مستعمرات، مما يعني منح سكانها حقوق المواطنة الرومانية الكاملة، كما منح مدنًا أخرى لقب البلديات، الذي يمنحها استقلالية إدارية معينة، ومن بين المدن التي تحصلت على لقب المستعمرة على سبيل المثال كانت مدن ماكتاريس(Mactaris) ، ولامبايسيس (Lambaesis) وبوتبوت (Putput) في ولاية أفريقيا البروقنصلية، بالإضافة إلى مدينتي أويا (Oea) وصبراتة (Sabratha) في إقليم المدن الثلاث، أما مدينة فينا (Vina) في ولاية أفريقيا البروقنصلية، فقد تحصلت على لقب البلدية، كانت هذه الإجراءات جزءًا من سياسة ماركوس أوريليوس الهادفة إلى تعزيز الاندماج بين الولايات وروما، وتحسين أوضاع سكانها، مما ساهم في تعزيز الولاء للإمبراطورية وترسيخ الاستقرار في أرجائها (نخبة من الأساتذة، 2007 م، ص 163).

ولكن الكوارث بدأت تتوالى على الإمبراطورية الرومانية، ففي نفس العام الذي تولى فيه السلطة، شن البارثيون بقيادة ملكهم فولوجاسيس (Vologases) هجومًا على أرمينيا واجتاحوا ولاية سوريا، ولمواجهة هذا التهديد، كلف الإمبراطور شريكه في الحكم لوكيوس فيروس بقيادة الحملة العسكرية ضد البارثيين، وبحلول عام 166م، تمكنت القوات الرومانية تحت قيادة الجنرال أفيديوس كاسيوس (Avidius Cassius) من تحقيق انتصار حاسم وطرد البارثيين من الأراضي الرومانية، غير أن هذا النصر جاء بمثابة كارثة أخرى، إذ عادت القوات الرومانية بقيادة لوكيوس فيروس إلى روما للاحتفال بانتصارها، وهي تحمل معها وباء الطاعون الذي انتشر في المناطق التي مرت بها خلال عودتها، وسرعان ما تفشى الوباء في أرجاء الإمبراطورية، مما تسبب في وفاة أعداد هائلة من السكان، وألحق أضرارًا جسيمة بالمجتمع الروماني واقتصاده، وهكذا، تحول النصر العسكري إلى مأساة إنسانية كبرى (الناصري، 1991، ص279).

تسبب هذا الوباء في تلف المحاصيل ونقص إنتاج الغذاء، مما أدى إلى اضطراب حركة النقل وانهيار الاقتصاد، وفي خضم هذه الأزمة، استغلت بعض القبائل الجرمانية على ضفاف نهر الدانوب وعبرت النهر، وهاجمت حامية رومانية عام 167م، ثم بدأت تزحف نحو داكيا، كما تمكنت بعض هذه القبائل من اختراق جبال الألب، وهزمت الجيوش الرومانية التي أُرسلت لصدها، ووصلت إلى محيط مدينة أكويليا(Aquileia) ، حيث فرضت حصارًا عليها، وهددت مدينة فيرونا (Verona)، ودمرت الحقول الخصبة في شمال إيطاليا، لم يكن أمام ماركوس أوريليوس خيار سوى النزول بنفسه إلى ساحة المعركة لقيادة الحرب بنفسه، وقام بتجنيد رجال الشرطة والمصارعين والعبيد وحتى قطاع الطرق والمرتزقة من البرابرة، بعد أن أنهكت الحروب والأوبئة قوات الجيش في الشرق، كما أمر كهنة الأديان الأجنبية في الإمبراطورية بتقديم القرابين إلى الآلهة وفق طقوسهم المختلفة، ساعيًا لكسب دعمها الروحي، ولمواجهة النفقات العسكرية، قام ببيع محتويات القصور الإمبراطورية من الثياب الفاخرة والتحف والحلي في مزادات علنية، دون أن يفرض ضرائب إضافية على الشعب، بالإضافة إلى ذلك، قام بتعزيز دفاعات المدن الواقعة على الحدود من بلاد الغال إلى بحر إيجة، وسد الممرات المؤدية إلى إيطاليا، ثم قاد الجيش بنفسه، وتمكن من فك الحصار عن أكويليا وطرد القبائل الجرمانية إلى ما وراء نهر الدانوب، ثم توفي شريكه في الحكم لوكيوس فيروس عام 169م إثر سكتة دماغية (ديورانت، 1988، ص ص 464، 465). استمر ماركوس أوريليوس في تحقيق انتصارات عسكرية ضد القبائل الجرمانية، لكن الأوضاع تعقدت أكثر عندما تمرد الجنرال أفيديوس كاسيوس عام 175م، معلنًا نفسه إمبراطورًا في الشرق بعد أن تلقى إشاعة كاذبة تفيد بوفاته، هذا التمرد أجبر ماركوس على إبرام معاهدة سلام مع القبائل الجرمانية للتفرغ لمواجهة التمرد في الشرق، لكن قبل أن يصل ماركوس بجيشه إلى الشرق، وصلته أنباء عن اغتيال أفيديوس كاسيوس على يد أحد ضباطه، ومع ذلك، واصل ماركوس مسيره إلى الشرق لتفقد الأوضاع بنفسه وتعزيز سلطته في المنطقة، فزار بعض مناطق آسيا الصغرى وسوريا ومصر، حيث عمل على استعادة الاستقرار وإصلاح الأضرار الناجمة عن التمرد، ثم عاد إلى روما عام 176م بعد أن ضمن ولاء الولايات الشرقية للإمبراطورية (بورتر،1991م، ص516)، حيث استُقبل ماركوس أوريليوس في روما بموكب نصر عظيم، وأشرك ابنه كومودوس (Commodus) معه في الحكم، كخطوة لتأمين الخلافة وتعزيز الاستقرار السياسي، ومع ذلك، كان ماركوس على يقين بأن مشكلة القبائل الجرمانية لن تُحل إلا بتوسيع حدود الإمبراطورية إلى ما وراء نهر الدانوب، لذلك قام في عام 178م بتوجيه جيوشه شمالًا، حيث اجتاز النهر وحقق سلسلة من الانتصارات الكبيرة ضد القبائل الجرمانية، غير أن المرض أقعده في فيندوبونا - (Vindobona) فيينا حاليًا - حيث توفي هناك عام 180م، وتولى ابنه كومودوس الحكم، منهيًا بذلك فترة تميزت بالحكمة والقيادة الرشيدة (ديورانت، 1988، ص ص 467 - 468).

3. الأوضاع السياسية:

بلغت الإمبراطورية الرومانية أقصى اتساع لها في عصر الإمبراطور تراجانوس (98 – 117م) حيث امتدت من اسكتلندا الحالية ونهر الراين والدانوب في الشمال الأوروبي وصولاً إلى بحر بونتوس(Pontus) [10] إلى الصحراء الكبرى بأفريقيا جنوباً، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى نهر الفرات في العراق الحالية شرقاً، بمساحة تقدر بثلاثة ملايين وخمسمائة ألف ميل مربع، وبعدد سكان بلغ سبعين مليون تقريباً، عاش منهم ما يقارب مليون ومائتان وخمسون ألف في مدينة روما (Mclynn.2009, p3)، وقد دخلت تحت سيطرتها شعوب كثيرة، سمحت لهم بممارسة أنظمتهم الاجتماعية ومعتقداتهم الدينية ولغاتهم وتقاليدهم وقوانينهم دون تدخل من الحكومة الإمبراطورية ما دامت تلك المعتقدات والقوانين لا تتعارض مع أمن وسلامة الإمبراطورية الرومانية وما دامت تلك الشعوب تدفع الضرائب المقررة عليهم (الحويري، 1995م، ص 13)، وقد تميزت الإمبراطورية الرومانية في الفترة الممتدة من تولي الإمبراطور تراجانوس عام 98م الحكم إلى غاية تولي الإمبراطور ماركوس أوريليوس عام 161م بالازدهار والاستقرار، وقد كانت الأوضاع فيها كالتالي:

1.3 منصب الإمبراطور:

انفرد شخص الإمبراطور بالسلطة العليا في الإمبراطورية الرومانية، بنظام المواطن الأول (الإمبراطور) الذي ابتدعه أوكتافيوس (أوغسطس) (Octavius Augustus) عام 27 ق.م (حسن،1970، ص 45)، واستندت سلطة الإمبراطور إلى سيطرته على الجيش وعلى خزانة الإمبراطورية واعتراف مجلس الشيوخ (Birley,2001,p28)، وكانت السلطة القانونية للإمبراطور مستمدة من التركيز الاستثنائي للسلطات والمناصب الفردية التي كانت موجودة في الجمهورية وتطورت في عهد أغسطس والحكام اللاحقين، وكانت هذه السلطات مقسمة بين عدة أشخاص، يمارسها كل منهم بمساعدة زميل ولفترة زمنية محددة، وقد احتفظ بها الأباطرة كلها بمفردهم، دون حدود زمنية؛ وحتى تلك التي كانت لها حدود زمنية اسميًا تم تجديدها تلقائيًا كلما انقضت، ومن أبرز هذه السلطات والمناصب، منصب القنصل، الذي يُمّكنه من زمام السلطة المدنية العُليا في روما وإيطاليا، ومنصب البروقنصل، الذي يتحصل من خلاله على سلطة الأمبريوم العسكرية في الإمبراطورية، والسلطة التريبونية التي بمقتضاها يُسيطر على الإدارة المدنية للدولة ويتمتع من خلالها بحق دعوة الجمعية الشعبية والسناتو للاجتماع وترأس جلساتهما، وحق سن القوانين والاعتراض على أي مشروع أو قانون، بالإضافة إلى حصوله على القداسة السياسية، ومنصب الكاهن الأعظم (Pontifex Maximus).(حافظ، 2007، ص 46)، وبذلك كان الإمبراطور هو مركز صنع السياسة وإصدار القوانين بالإمبراطورية، وحتى القوانين الصادرة من مجلس السناتو إما أن تكون مقدمة من الإمبراطور أو أن إصدارها كان بموافقته أو بطلب منه (Birley,2001,p105). وقد تعاقب أباطرة هذا العصر (ما بعد الإمبراطور دومتيانوس (Domitianus) (81-96م) على حكم الإمبراطورية الرومانية على أساس التبني وليس على البنوة الطبيعية، وإن كانت القرابة والمصاهرة تُزكي هذه العملية (إيمار، 1986، ص 310)

2.3 مجلس السناتور:

كان مجلس الشيوخ هيئة سيادية مساعدة للإمبراطور، مُنحت سلطات معينة اعتماداً على نوع العلاقة بين الإمبراطور والمجلس، ومنذ وصول الأباطرة الصالحين لحكم الإمبراطورية ساد بين الإمبراطور وبين مجلس الشيوخ الاحترام، وكانت السمة الرئيسية بينهم هو التعاون، وصار العرف الأساسي هو أن يتصرف الإمبراطور كأحد أعضاء مجلس الشيوخ، ولكن هذا العرف لم يكن بإمكان مجلس الشيوخ فرضه، وكان يعتمد على قرار الإمبراطور نفسه، ويرجع السبب في كون العلاقة بين الأباطرة الصالحين وأعضاء مجلس الشيوخ خالية من التوتر تقريباً[11] إلى أن أباطرة هذا العصر كانوا أعضاء في مجلس الشيوخ فترة زمنية طويلة قبل أن يتولوا حكم الإمبراطورية، ما جعلهم على دراية بما يدور في المجلس وتشبعهم بروحه، وتربطهم علاقات صداقة مع أعضائه. كان الإمبراطور هو من يُقرر كيفية قبول انضمام أعضاء جدد لمجلس الشيوخ، الذين يتم اختيارهم من مدينة روما أو محيطها المباشر في عصر أكتافيوس أوغسطس، وغالباً ما يكونون من عائلات لها جذور سياسية طويلة فترة العصرة الجمهوري (Ackeren,2012,pp 98,99). ولكن بمرور الوقت تمكن العديد من الأفراد الذين كانت بلدانهم خارج إيطاليا من الوصول إلى مجلس الشيوخ[12]، وكان السبق في ذلك

(10) وعرف ببحر الخزر، وعند الإغريق ببحر بنطس، وعند العرب بحر طرابزندة، يتفرع منه خليج يمر بسور القسطنطينية. (الحموي، 1955م، ص342)، وهو البحر الأسود الحالي، وهو بحر داخلي يقع في الجزء الشرقي لأوروبا، ويتصل بالبحر المتوسط عن طريق البسفور وبحر مرمرة (ارحيم، 2017، ص 73).

(11) توترت العلاقة بين الإمبراطور هادريانوس ومجلس السناتو، حيث وجد السناتو نفسه معزولاً بلا عمل بسبب كثرة ترحال وسفر الإمبراطور هادريانوس الذي قام بتقريب طبقة الفرسان وكون منهم مجلس استشاري يتنقل معه ويرجع إليه في المشورة، كذلك قيامه بتقسيم إيطاليا إلى أربعة ألوية قضائية يشرف عليها بنفسه ويختار لكل منها رئيس قضاتها زاد الخلاف بينه وبين مجلس السناتو والذي استمر إلى وفاة الإمبراطور هادريانوس، (الناصري، 1982، ص 266).

(12) كان أعضاء مجلس الشيوخ الأوائل الذين تمكنوا من الوصول إلى مجلس الشيوخ من المقاطعات معظمهم من المهاجرين الإيطاليين أو من المستعمرات الرومانية التي تم تأسيسها في تلك المقاطعات، ولكن مع مرور الوقت تمكن أفراد من سكان تلك المقاطعات الأصليين من الوصول إلى هذا المجلس.

على يد الإمبراطور فسبسيانوس للمقاطعات الغربية الناطقة باللغة اللاتينية في اسبانيا وجنوب بلاد الغال والتي كانت متشبعة بالثقافة الرومانية (سيد الناصري، 1991م، ص 210) ومن بين الذين تمكنوا من الوصول إلى مجلس الشيوخ من المقاطعات الغربية عائلات الأباطرة، تراجانوس، وهادريانوس، وأنطونينوس بيوس، وماركوس أوريليوس، كما تمكن بعض أفراد المقاطعات بشمال أفريقيا في زمن فسبسيانوس وزمن تراجانوس وهادريانوس من الوصول إلى مجلس الشيوخ، من بينهم عائلة كورنيليوس فرونتو (Cornelius Fronto) معلم البلاغة لماركوس أوريليوس، والتي جاءت من مدينة كيرتا (Cirta) بمقاطعة نوميديا، وكان من ضمن الذين تمكنوا من الانضمام لمجلس الشيوخ بدءً من عصر تراجانوس أفراد من المقاطعات الشرقية، حيث كان لهم دور كبير في إثراء الثقافة والأدب في الإمبراطورية الرومانية(Ackeren,2012,p100)، وبالرغم من فقدان مجلس السناتو السلطة في العصر الإمبراطوري إلا أنهم شغلوا العديد من المناصب في الإمبراطورية كأفراد، فقد عُهدت إليهم المقاطعات الكبرى بالإمبراطورية بالإضافة إلى الوظائف العسكرية والإدارية والسياسية التي يقوم الإمبراطور بتكليفهم بها، إلى جانب الدور الاستشاري للإمبراطور(حافظ،2007م، ص ص 44، 50).

3.3 الجيش:

كان استقرار الحكم بالنسبة للأباطرة قائم على ولاء الجيش وكان على الجيش المرابط في الأقاليم أن يكون مستعداً بشكل دائم لحماية الإمبراطور الذي يقسم يمين الولاء له سنوياً، كانت هناك وحدات عسكرية في كل مقاطعة، ولكن غالبية الجيش كان متمركزاً في المقاطعات الحدودية مثل بريطانيا وجرمانيا وبانونيا العليا وكابادوكيا[13] وسوريا، وكانت على هيئة فيالق؛ فيلقان أو ثلاثة على حسب درجة الخطورة، بالإضافة إلى عدد متغير من الوحدات المساعدة والمشاة، ويتمركز في بعض المقاطعات فيلق واحد بالإضافة إلى الوحدات المساعدة، مثل بانونيا الدنيا وداكيا وشبه الجزيرة العربية ونوميديا، أما بالنسبة للمقاطعات الهادئة فكانت تتمركز فيها حامية واحدة من الوحدات المساعدة، مثل آسيا وأفريقيا وصقلية وقبرص، وكانت قيادة هذه القوات من مهام أعضاء مجلس الشيوخ المكلفين كحكام لهذه المقاطعات، باستثناء مقاطعة مصر فكانت تحت قيادة حاكم مصر وهو دائماً ما يكون من طبقة الفرسان (Ackeren,2012,p103).

4. الأوضاع الاقتصادية:

1.4 الزراعة:

يعتمد الاقتصاد الروماني على الزراعة بشكل كبير، وقد اهتم الاباطرة بالإنتاج الزراعي وتدخلوا في العمليات الاقتصادية في بعض الأحيان، حيث قام الإمبراطور دومتيانوس بإصدار مرسوم ينص على منع زراعة كروم جديدة في إيطاليا، وقطع نصف الكروم في المقاطعات، ولكنه تراجع عن قطع الكروم في المقاطعات بسبب احتجاج المزارعين في المقاطعات، وقام الإمبراطور نيرفا بشراء بعض الأراضي البور في إيطاليا ووزعها على العائلات الفقيرة، وقام الأباطرة الصالحون من بعده بمنح القروض لصغار الفلاحين للتوسع في زراعة الحبوب، وتقييد زراعة الكروم في المزارع الإمبراطورية في أفريقيا، وقد لجأ الأباطرة لمثل هذه السياسات التي تُشجع على زراعة الحبوب بسبب عدم كفاية الإنتاج الزراعي من الحبوب الإيطالية لتلبية احتياجات السكان في إيطاليا، وذلك بسبب تناقص زراعة الحبوب والزيتون خلال القرن الأول الميلادي، وازدياد زراعة الفواكه والكروم التي يُعتمد عليها في صناعة النبيذ، وقد اعتمد الرومان على العديد من الأنظمة في المزارع، حيث كان هناك نظام المزارع الكبيرة التي يزرعها العبيد ويُديرها وكيل تحت إشراف المالك، ونظام المزارع الصغيرة التي يزرعها ملاكها بأنفسهم وهم المعروفون بصغار الفلاحين، ونظام المزارع البعيدة التي كان ملاكها يخصصونها لزراعة الحبوب ويقومون بتأجيرها إلى وسيط يضع عبيداً للعمل فيها (Frank,2004, pp 218-221).

2. الصناعة:

أما الإنتاج الصناعي فلم يحرز سوى تقدم بسيط باستثناء مصانع الطوب في روما بسبب النهضة العمرانية، ويرجع عدم تطور الصناعة الرومانية في هذه الفترة إلى تراجع تصدير المصنوعات بشكل عام سواء كانت هذه المصنوعات من النحاس أو الحديد أو الفخار والزجاج بسبب الاكتفاء الذاتي للمقاطعات من هذه المنتوجات، ونتج عن ذلك تحول أصحاب الأموال الطائلة إلى الإنتاج الزراعي والحيواني، وبالتالي نقل العبيد الحرفيين الذين كان يُعتمد عليهم في الصناعة إلى الحقول، الأمر الذي أتاح إلى ازدياد عدد الحرفيين الأحرار أصحاب المشاريع الصغيرة، وترتب على ذلك تشتيت الأموال المتراكمة بين صغار الحرفيين والملاك، أدى إلى عدم وجود أموال كبيرة يقترضها الأباطرة فيما بعد في اللحظات الحرجة للدولة، وبالتالي اللجوء إلى خفض قيمة العملة عندما احتاجوا إلى أموال جاهزة وقت الأزمات (zgur,2007, p 156).

(13) إحدى المدن الأيونية، تقع في وسط الأناضول في دولة تركيا الحالية (ارحيم، 2017، ص89).

2.4 التجارة:

أما التجارة فقد كانت رائجة ونشطة في تلك الفترة حيث كانت سيطرة الرومان على البلدان المطلة على البحر المتوسط توفر السلام لهذه المناطق وتجعل التجارة البحرية آمنة والطرق التي عبّدها الرومان خاضعة للرقابة العسكرية وتمر عبر جميع المقاطعات الخاضعة للسيطرة الرومانية، ولا توجد قوانين وسياسات للدولة تُقيّد النشاط التجاري، وكانت البضائع تشحن من وإلى المدن الإيطالية، ومن أهم هذه البضائع: الصوف والأخشاب، وزيت الزيتون والحبوب التي كانت تشحن بكميات كبيرة إلى روما مقابل النبيذ، بالإضافة إلى الجلود والعبيد والملابس، والمجوهرات والأواني (Frank,2004, p 227).

3.4 الضرائب:

تم إنشاء هياكل إدارية لجمع الضرائب وإدارتها، وكانت هناك سلطات محلية مسؤولة عن تقدير الضرائب وتحصيلها في المقاطعات، وكانت تلك السلطات تعمل تحت إشراف الحاكم المحلي والإدارة المركزية في روما، والضرائب في ذلك الوقت عدة أنواع، هي:

- الضرائب غير المباشرة: تشمل الرسوم على الاستهلاك والتجارة مثل رسوم الجمارك والضرائب على المبيعات، وتم فرض هذه الضرائب على السلع المتداولة داخل الإمبراطورية وعبر الحدود الرومانية، وكانت الضرائب المفروضة على التجارة داخل الإمبراطورية لا تدر إيرادات كبيرة بعكس الضرائب الحدودية التي كانت تُفرض على التجارة الخارجية والتي كانت تأتي من الشرق، والتي كانت تُدر عليهم أرباحاً كبيرة، (Mclaughlin,2014, p 221).
- الضرائب المباشرة: وتشمل الضرائب المفروضة على الممتلكات العقارية والأراضي والممتلكات الشخصية، وكانت تُجمع من سكان الإمبراطورية بالمقاطعات.
- الضرائب على الإيرادات: وهي الضرائب المفروضة على إيرادات المحاصيل الزراعية، وأرباح الأعمال التجارية، وورش العمل والمناجم.
- الضرائب العسكرية: وهي الضرائب المفروضة على الجنود والضباط، وتستخدم لتجهيز القوات وصيانة البنية التحتية العسكرية، (Bowman, 2007, 328)

5. الأوضاع الاجتماعية:

لم يحدث في القرن الثاني الميلادي أي تغييرات اجتماعية كبيرة تقريباً باستثناء توسع الأباطرة في منح حقوق المواطنة الرومانية، وإحداث توازن بين الجنود والطبقات العليا، ولم تعد الوظائف العليا وعضوية مجلس الشيوخ حكراً على طبقة النبلاء، ولم يعد من الضروري اختيار الامبراطور من العائلة الحاكمة، فقد صعدت عائلات كثيرة من الطبقات الدنيا خلال فترة حكم الإمبراطور فسبسيانوس إلى طبقة النبلاء، وكذلك اختفاء العائلات الارستقراطية بالجمهورية الرومانية القديمة تقريباً والتي كان من الممكن أن تتفوق على الأسرة الحاكمة، فبحلول عام 69م كان معظم أحفاد النبلاء الجمهوريين إما ماتوا لأسباب طبيعية أو تمت إبادتهم بسبب الحروب واضطهاد الأباطرة، ولم تعد حداثة العضوية في مجلس الشيوخ وغموض الأصل يمنعان من احتمال الوصول إلى الوظائف العليا بما فيها وظيفة الإمبراطور، ولم يعد الأباطرة في حاجة إلى تعزيز أهميتهم من خلال المناصب القنصلية المتكررة، حيث كانوا يشغلون منصب القنصلية بشكل غير منتظم، ومع ذلك فقد استمروا في التأكيد على سمو عائلاتهم من خلال تأليه الأقارب المتوفين، فقد قام الامبراطور تراجانوس بتأليه أخته وابنة أخته وأبيه، وقام الإمبراطور أنطونينوس بتأليه زوجته، وأصبح منصب الإمبراطور أشبه بالملكية المعلنة حيث بدأت الوثائق الرسمية في تسمية الإمبراطور بلقب سيدنا (Dominus Noster) (Boatwright,2003,p57).

اجتذبت مدينة روما المهاجرين الأحرار من جميع أنحاء الإمبراطورية؛ بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من العبيد المُعتقين، وكانت الغالبية العظمى منهم فقراء ويواجهون صعوبة كبيرة في العثور على عمل، وكانوا يعتمدون على إعانة الحبوب العامة، وعلى الأعمال الخيرية الخاصة للأثرياء، وقد أعطت أعمال البناء الكبيرة لأباطرة الأسرة الفلافية والأباطرة الأنطونينين الفرصة لإصلاح الأضرار الناجمة عن الحرائق وسقوط المباني ولتخفيف البطالة المنتشرة في المناطق الحضرية، وكان على أعضاء مجلس الشيوخ في المدن بناء الطرق وتنفيذ الكثير من أعمال الشرطة الريفية داخل مدنهم، والتأكد من تحصيل الضرائب ورسوم العبور، والقيام بتمويل المباني العامة كالمسارح، والمدرجات، والمعابد والحمامات، وأن يدفعوا مبالغ كبيرة مقابل انتخابهم، ثم يقدمون بعد ذلك بالمزيد من المساهمات السخية حسب الحاجة وبقدر ما يستطيعون، من أجل تزيين مجتمعهم، وذلك في أغلب الأحيان من أجل الشعور بالاستحسان والثناء المجتمعي، وتعزيز النفوذ الشخصي من خلال إظهار الوسائل المالية العظيمة، والتقدم الاجتماعي والسياسي من خلال جذب انتباه الحاكم أو الإمبراطور، حيث يتم اختيار أعضاء مجلس الشيوخ الروماني الجدد من النخبة الإقليمية (Starr, 1982, p 113). أما بالنسبة للطبقات الدنيا، فنادراً ما يُسمع صوتهم، إلا في التزكية للأغنياء طالما أنهم يغطون طوعًا الجزء الأكبر من النفقات المحلية، وطالما أنهم يستحوذون على الوظائف العامة، وهكذا فإنهم يُشيدون بترشيحات الأغنياء ومواهبهم، ولا ينفسون عن رغباتهم إلا من

خلال الصراخ في المسرح أو المدرج أثناء العروض، أو من خلال أعمال الغوغاء في الشوارع (Morley, 2010, p113). بشكل عام تمتعت الإمبراطورية خلال الفترة السابقة لحكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس بالسلام والاستقرار النسبيين، فقد قام الإمبراطور تراجانوس بتوسيع الإمبراطورية إلى أقصى مدى إقليمي لها، وركز خليفته الإمبراطور هادريانوس على تعزيز حدود الإمبراطورية، مما أدى إلى النمو الاقتصادي وازدهار التجارة، وقد سمح ذلك بتطوير البنية التحتية والمباني العامة، إلا أنه كانت هناك تحديات على الحدود، فقد مارست القبائل الجرمانية في الشمال والبارثيين في الشرق ضغوطًا على حدود الإمبراطورية، وشكلت خطر حقيقي على الإمبراطورية الرومانية خلال فترة حكم ماركوس أوريليوس.

6. الخاتمة:

1. تميزت هذه الفترة باختيار الأباطرة بناءً على الكفاءة وليس الانتماء العائلي، مما أدى إلى حكم أكثر استقرارًا وفعالية، اعتمد فيه الأباطرة على نظام التبني لضمان انتقال السلطة بشكل سلس، مما ساهم في استمرارية الحكم الرشيد، وتم تعزيز الإدارة المركزية مع منح الولايات استقلالية نسبية، مما أدى إلى تحسين إدارة الأقاليم وزيادة ولاء السكان.
2. وصلت الإمبراطورية إلى أقصى اتساع لها في عهد تراجان، حيث ضمت مناطق مثل داكيا وبلاد الرافدين، واهتم الأباطرة بتأمين الحدود من خلال بناء الحصون والجدران الدفاعية، مثل سور هادريان في بريطانيا، وتمت مواجهة التهديدات الخارجية من قبل القبائل الجرمانية والبارثيين بحزم، رغم التحديات الكبيرة.
3. شهدت الإمبراطورية نموًا اقتصاديًا كبيرًا بسبب تحسين البنية التحتية، مثل بناء الطرق والموانئ، مما سهل التجارة الداخلية والخارجية، وتم تعزيز الزراعة من خلال منح القروض للفلاحين وتشجيع زراعة الحبوب، وتطوير نظام الضرائب ليكون أكثر عدالة وفعالية، مع التركيز على الضرائب غير المباشرة لزيادة الإيرادات.
4. تم تعزيز حقوق المواطنة الرومانية لسكان الولايات، مما ساهم في زيادة الاندماج الاجتماعي والسياسي، وتم إصدار قوانين لحماية الفئات الضعيفة، مثل العبيد والمدينين، وتعزيز العدالة الاجتماعية، وتحسين النظام القضائي من خلال إصدار اللائحة الدائمة، مما جعل القانون أكثر وضوحًا وعدالة.
5. اهتم الأباطرة بتحسين الرعاية الصحية والتعليمية للفقراء، مما ساهم في رفع مستوى المعيشة، وتم إنشاء صندوق لدفن موتى الفقراء، مما يعكس الاهتمام بالرعاية الاجتماعية.
6. واجهت الإمبراطورية تحديات كبيرة، مثل انتشار وباء الطاعون الذي أضعف الاقتصاد والسكان، وتمرد بعض الجنرالات، مثل أفيديوس كاسيوس، مما أدى إلى اضطرابات داخلية، استمرت التهديدات من القبائل الجرمانية والبارثيين، مما تطلب جهودًا عسكرية كبيرة.
7. تم بناء العديد من المدن والمباني العامة، مثل الحمامات والمسارح والمكتبات، مما يعكس الازدهار الحضاري، وتم تعزيز الثقافة الرومانية في الولايات من خلال منح حقوق المواطنة وبناء المدن الرومانية.
8. تركت سياسات التوفير المفرط لأنطونينوس بيوس إرثًا من التحديات العسكرية التي واجهها خليفته. ماركوس أوريليوس، وبوفاته عام 180م، بدأت الإمبراطورية تواجه تحديات أكبر، خاصة مع صعود ابنه كومودوس، الذي لم يكن بنفس كفاءة سلفه.

7. قائمة والمراجع:

1.7 المراجع العربية:

1. البرغوتي، عبد اللطيف محمود. (1971).**التاريخ الليبي القديم** .دار صادر. بيروت.
2. الحويري، محمود محمد. (1995).**رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية** (ط3). دار المعارف. القاهرة.
3. حسن، سناء .(2018) . **الإمبراطور ماركوس أوريليوس** (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية.
4. حافظ، أحمد غانم .(2011) .**الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار** .دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية.
5. ديورانت، ول .(1988) .**قصة الحضارة** (ج3، م3، ت. محمد بدران). بيروت.
6. رحيم، عبد الناصر نور الدين .(2017) .**غزوات الهون وتأثيرها على الإمبراطورية الرومانية (355-453م)** (رسالة ماجستير غير منشورة). كلية الآداب، جامعة مصراتة.
7. روستوفيتزف، ميخائيل .(1957) .**تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي** (ت. زكي علي، محمد سليم سالم). دار النهضة المصرية. القاهرة.
8. الناصري، سيد .(1991) .**تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي الحضاري** (ط2). دار النهضة العربية. القاهرة.
9. نخبة من الأساتذة .(2007) .**تونس عبر التاريخ** (ج1). مطبعة سنباكت. تونس.
10. بورتر، هارفي .(1991) .**موسوعة مختصر التاريخ القديم** .مكتبة مدبولي. القاهرة.
11. ايمار، أندريه؛ أوابوايه، جانين .(1986) .**تاريخ الحضارات العام: روما وإمبراطوريتها** (ت. فريد م. داغر، فؤاد ج. أبوريحان). منشورات عويدات. بيروت.

2.7 المراجع الأجنبية:

1. Ackeren, M. V. (2010). **A companion to Marcus Aurelius**. Wiley Blackwell.
2. Birley, A. R. (2001). **Marcus Aurelius: A biography**. Routledge.
3. Bowman, A., & Garnsey, P. (Eds.). **The Cambridge ancient history**. Cambridge University Press.
4. Frank, T. (2004). **An economic history of Rome**. Batoche Books.
5. McLaughlin, R. (2014). **The Roman Empire and the Indian Ocean**. Military Britain.
6. McLynn, F. (2009). **Marcus Aurelius**. Da Capo Press.
7. Starr, C. G. (2010). **The Roman Empire**. Pluto Press.
8. Weigel, R. D. (1998). **Antoninus Pius (A.D. 138-161)**. Kentucky University.
9. Zgur, A. (2007). **The economy of the Roman Empire in the first two centuries A.D.** University of Aarhus.

The Conditions of the Roman Empire During the Reign of the Five Good Emperors (96-180 AD)

Mohamed Abdulkader Ben Salah

Faculty of Arts - Misurata University

M.bensalah@art.misuratau.edu.ly

Article information

Key words

Roman Empire, Five Good Emperors, Conditions of the Empire

Abstract

The research examines the conditions of the Roman Empire during the reign of the Five Good Emperors (96-180 AD), a period marked by significant transformations in political, economic, and social spheres. This era was characterized by the selection of emperors based on merit rather than familial ties, leading to stable and effective governance. The emperors relied on the system of adoption to ensure a smooth transition of power, contributing to the continuity of wise leadership. The empire reached its greatest territorial extent under Trajan, incorporating regions such as Dacia and Mesopotamia. The emperors focused on securing the borders through the construction of forts and defensive walls, such as Hadrian's Wall in Britain. However, the empire faced significant military challenges. Economically, the empire experienced substantial growth due to improvements in infrastructure, such as the construction of roads and ports, which facilitated domestic and international trade. Agriculture was bolstered through loans to farmers and the promotion of grain cultivation. Nevertheless, plagues, such as the Antonine Plague, led to economic decline and population loss. Socially, the rights of Roman citizenship were extended to provincial inhabitants, enhancing social and political integration. Laws were enacted to protect vulnerable groups, such as slaves and debtors, and the judicial system was improved through the establishment of the Edictum Perpetuum (Perpetual Edict). In summary, the Roman Empire achieved significant prosperity in political, economic, and social domains during the reign of the Five Good Emperors. However, it faced challenges that weakened its stability by the end of this period. This study aims to analyze the political, economic, and social conditions of the Roman Empire during the reign of the Five Good Emperors, focusing on their administrative, military, and cultural achievements, and the impact of their policies on the empire's stability and prosperity. The research adopts a historical methodology, relying on the narration and analysis of historical events wherever possible. The study concludes that the Roman Empire achieved remarkable prosperity under the Five Good Emperors but faced challenges that undermined its stability by the end of this era.